الدور التربوي للمسجد

د. فرغلي جاد أحمد

المقدمة :

الحديث عن المسجد إنما هو حديث عن المؤسسة التربوية الرئيسة في الإسلام، التي ساهمت في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وهما : دعامتا الحضارة العربية الإسلامية.

وإذا كان البعض يعتبر عام ٤٥٩هـ حدا فاصلا بين عهدين في تاريخ المؤسسات التعليمية الإسلامية، ففي هذا العام أنشئت المدرسة النظامية في بغداد؛ مؤذنة ببداية عهد تعليمي جديد، انتقلت فيه أماكن التعليم من الكتاتيب والقصور والمساجد، ودور الحكمة، وحوانيت الوراقين، ومنازل العلماء، إلى المدارس المنظمة.[١] فإن هذا لايقلل من دور المسجد كأول مؤسسة انطلق منها شعاع العلم والتعلم في الإسلام، على كافة البشر، حيث كان يلتقي فيه الطلاب بالعلماء: يناقشون، ويتحاورون فيما يعن لهم من مشكلات ومسائل فقهية، أو علمية بحتة، حتى قيل بحق : إن آلاف أعمدة المساجد التي كانت منتشرة في الإسلام، كانت محاطة بآلاف من العلماء المسلمين، وعشرات الآلاف من المتعلمين، فكانت حلقات الدراسة التي قامت في المسجد منذ نشأ واستمرت كذلك على مر السنين والقرون في مختلف البلاد الإسلامية دون انقطاع.[٢]

ويميل بعض المؤرخون : إلى الاعتقاد بأن نشأة المدارس الإسلامية يحيط بها كثير من الغموض، ولا يمكن تحديدها بتاريخ معين، كما يرى آخرون: أنه من المرجح أن تكون المدارس قد سبقت في ظهورها نشأة المدرسة النظامية في عام

٤٥٩هـ، أي في منتصف القرن الخامس الهجري، فإن المرجح أن تكون المدرسة النظامية في عام ٤٥٩هـ، أي في منتصف القرن الخامس الهجري. ومهما يكن الأمر فإن المرجح أن تكون بعض المصادر قد خلطت بين المدارس كمؤسسات تعليمية، وبين أماكن التعليم الأخرى، مثل: الكتاب، والمسجد.

ومن المعروف: أن تأسيس دار الحكمة قداكتمل على يد المأمون عام ٢١٧هـ ـ ٨٣٢م، ولكن دار الحكمة لم تكن مدرسة نظامية بالمعنى المتعارف عليه، فقد كانت دارا للنسخ والترجمة، إلى جانب كونها مكتبة عامة، ذات شأن في العالم الإسلامي[٣].

وعلى أية حال فيعتبر ظهور المدارس في العصر الإسلامي أهم محاولة جدية لتنظيم الدراسة واستمرارها، بتوفير وسائل التفرغ لها، إذ جعلت مرتبات ثابتة للمدرسين، وزُوّد الطلاب في حالات كثيرة بالمسكن والمأكل، مما ساعد بالضرورة على إيجاد نظام ثابت، وتقاليد مرعية للمدرس والإدارة، وعمل على الاستقرار والنمو في تلك المعاهد.[١]

ولم يكن عجيبا أن ارتبط التعليم بالمسجد لزمن طويل، ففي كل مسجد يقام كانت تقام بداخله مدرسة، بل مدارس فكرية وعلمية ودينية، وكان الكبار يؤدون في نفس المكان قبل الصلاة أو بعدها شعائر العلم من تعليم وتعلم، «وهكذا تكاثرت حلقات الدراسة بالمسجد، وتعددت مجالس العلم فيه، وأصبح بيئة تربوية مفتوحة، غنية بكل أنواع الخبرة والمعارف اللازمة لحياة الفرد والمجتمع»[٤] فتاريخ المسجد في الإسلام حافل بأعظم مافي التراث الحضاري الإسلامي من خصائص وقيم حضارية، بهرت الغرب الأوروبي، ومازالت تبهره حتى اليوم.

وعلى أية حال فيمكن تمييز فترتين من تاريخ التربية الإسلامية: تمتد الفترة الأولى لتشمل القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، عندما كانت التربية عملا خيريا، وشأنا من شئون الأفراد، فتوجد المدارس حيثما اتفق، ودون سياسة رسمية معينة، أما الفترة الثانية: فتشمل القرون ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ عندما أصبحت التربية مسئولية من مسئوليات الدولة، وأصبحت المدارس تسير وفق خطة معينة وفلسفة محددة.[٥] أما بالنسبة للسلم التعليمي في الإسلام فيمكن تمييز المراحل التالية:[٣]

١ ـ **المرحلة الأولى**: وكانت تقدم في «الكتاب» من سن ٦ إلى ١٤، وكان الكتاب

يوجد غالبا خارج المسجد في منزل الفقيه (المعلم) أو في الحوانيت.

٢ ـ **المرحلة الثانوية أو المتوسطة** : وكـانت مدارس هذه المرحلة تعـرف : باسم مدرسة المسجد، أو الحلقة أو المدرسة، ويتراوح سن التلاميذ فيها من (١٤ ـ ١٨) سنة.

٣ ـ **التعليم العالي** : وتبـدأ بعد انتهاء التلاميذ من حفظ القرآن الكريم، وكانت توجد في إحدى المؤسسات التالية : دار الحكمة ـ المكتبات ـ الصالونات الأدبية ـ دور العلماء ـ المساجد الكبيرة مثل الأزهر.

وبالنسبة للتنظيم الداخلي للمؤسسات التعليمية الإسلامية ، فمن المرجح أن معاهد التعليم لم تتبع نظام تقسيم الدراسة إلى سنوات تعليمية، كما لم تعرف تقسيم التـلاميذ إلى فصول دراسية، وإنما كان التلاميذ يجلسون في حلقات حول الأستاذ الذي كان يجلس على خشبة أو منصة، ويستند إلى الحائط، أو سارية من سواري المسجد.[٣]

كما كان من أهم عوامل ازدهار وتقدم حضارة المسلمين تلك الليبرالية العظيمة التي أبـدوهـا نحـو تعليم أبنائهم، حيث كان التعليم منتشرا في كل أرجاء الدولة الإسلامية، وكان من العسير أن نجد فردا من المسلمين لايعرف القراءة والكتابة.[٦]

وهكذا تميزت التربية الإسلامية بتعدد مؤسساتها وتنوعها، مما جعلها قادرة على أن تخدم أهدافا متعددة، وساعدها على أن تكون ميسرة لفئات كثيرة، وبأنها لم تقصر عملية التعليم على مرحلة عمرية معينة، إذ كانت تربية بامتداد الحياة، كما كانت مؤسسات التعليم في الإسلام نتاجا للمطالب والتحديات والتغيرات الحضرية التي طرأت على العالم الإسلامي، بل إن كل مؤسسة من المؤسسات التعليمية في الإسلام إنما نشأت استجابة لحاجة اجتماعية معينة. كما أن الأهمية التي احتلتها هذه المؤسسات تباينت واختلفت بأختلاف الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في المجتمعات الإسلامية. بل إن مناهج الدراسة في هذه المؤسسات التعليمية قد تباينت أيضا مع تباين التركيب الحضاري والاجتماعي في العالم الإسلامي.

ولكن مهما تنوعت وتباينت المؤسسات التربوية الإسلامية، فإن المسجد يتبوأ

مكـان الصـدارة بين تلك المؤسسـات كأول مؤسسـة لها دورهـا البـارز في التعليم والتثقيف. بل وفي المسجـد كان يتم تدبير الكثير من شئون المسلمين . . . لذلك كانت تلك الـدراسـة عن دور المسجـد في الـتربية الإسـلامية محاولة للتعرف على منطلقات وأهداف تلك التربية والخصائص التي تفردت بها، من خلال إبراز دور أهم مؤسساتها، وفي ضوء بعض المضامين التربوية التي جاء بها القرآن الكريم، ومحاولات البعض للخروج منها بنظرية تربوية إسلامية تسبق مفاهيم معظم النظريات التربوية المعاصرة.

أولا : التربية الإسلامية

أ ـ الإسلام والتعليم

من واد غير ذي زرع بدأ الاسلام يغمر الكون هاديا العالمين ، واستطاع النبي (ﷺ) ومن بعده الخلفاء الراشدون : أن يبعثوا في نفوس أبناء الصحراء الأحرار وفي من هم أكثر تحضرا من أهل البلاد الواقعة في الأطراف روح الاتحاد والعمل ، وإلى هذا البعث يرجع الفضل في المكانة التي يتبوأها الإسلام كدين عالمي . . .[٧]

لقد كان الإسلام ثورة على الأوضاع الاجتماعية، التي كانت سائدة في شبه الجـزيرة العـربية والعـالم المعـروف في ذلك الوقت «وتكون مجتمع إسلامي، ودولة إسلامية، وتربية إسلامية، على انقاض المجتمعات والحضارات والتربية القديمة، ومـرت الـدولـة والمجتمـع والحضارة والتربية بتغيرات كثيرة . .»[٨] فأنتقل الإسلام بالعـرب من المحلية الضيقـة إلى العـالمية في الأمبراطوريات المجاورة في الأمصار، واستطاع الإسلام أن يشعر العالم المشتت الأطراف بوحدته ، وعن الإسلام نشأت الحضارة العربية التي تعد واحدة من أعظم الحضارات الإنسانية العالمية تسامحا، ورفعا لشأن الإنسان واعتزازه بحقوله.

لقـد سجـل التاريخ الإسلامي منذ ألف وأربعمائة عام فتح أبواب الحضارة لشتى العلوم والفنون، بوحي من المعجزة الكبرى «القرآن الكريم» ومن مكة المكرمة مهـد الإسـلام، ومن جامعـات دمشق، وبغـداد، والقـاهرة، وقرطبة، وفارس،

واصفهان، وغيرها ـ بعثت ثروة عظمى من العلوم الإسلامية التي أثرت أثرا ملموسا في الغرب الأوربي، الذي يدين لهذه الثروة العلمية في بعثه أيام النهضة على أعتاب العصور الحديثة.[٢]

ومن هذه الحضارة العربية الإسلامية تولد العلم العربي الذي ساهم في تكوينه مفكرون من مختلف القوميات والجنسيات، ولكن بلسان عربي، وفي ظل الدين الإسلامي الحنيف. وكان السر وراء هذا التقدم العلمي والمعرفي «يكمن في جوهر العقيدة الإسلامية، التي تدعو الى التوحيد والحرية الفردية، والأخوة في الإنسانية، والمساواة امام الله، والتكافل في المجتمع، وقد شرعت الفرئض الدينية لتجعل من هذه المباديء خصائص حية، ومنها: العلم. حيث اعتبره الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة، يطلبانه ولو في أقاصي الصين من المهد إلى اللحد . .»[٩]

وجاء النبي (ﷺ) يزكي الأميين ويعلمهم: «إنما بعثت معلما . .» ويجعل من العلماء ورثة الأنبياء، وهؤلاء العلماء لم يكونوا إلا مدرسين، ولم يكن المدرسون إلا علماء . .[١٠]

وكما أوجب الإسلام على المسلم أن يطلب العلم، وأن يتعلم، فقد أوجب العالم أن لايكتم العلم، وأن يعلمه.[١١]

هذه الروح الدينية حركت الناس جميعا إلى التعلم والتعليم، فلم يكونوا مسوقين بقرارات حكومية وسلطات إدارية، ولكن بالتزام أقوى من كل التزام، وأصبحت الدراسة صلاة، كما يشير الرسول (ﷺ) إلى ذلك بقوله: «لأن تغدو فتعلم بابا من العلم خير لك من أن تصلي مائة ركعة . . .»[١٢]

ب ـ منطلقات التربية الإسلامية

إن تغيير الإنسان هو المنطلق الأساسي للتربية الإسلامية، وتنمية الإنسان تنمية شاملة، هي: أساس هذا التغير الاجتماعي، فهي بذلك تعتبر التربية المدخل الأساسي لبناء المجتمع على أسس رصينة مادية وخلقية، فالإنسان هو عمود النظم الاجتماعية ولذلك فإصلاح الإنسان وبناؤه بناء عقليا وروحيا واجتماعيا وجسميا ونفسيا: هو الضمان الأساسي لتسيير إدارة المؤسسات والنظم الاجتماعية في طريق

إيجابي. فمهما صيغت الإدارة وصيغت أساليبها ، وصيغة التشريعات اللازمة لإصلاحها وإبعادها عن الفساد، فإن الإنسان يظل هو العنصر المحقق لإيجابياتها أو المتسبب في معوقاتها وسلبياتها، وفي هذا يذكر القرآن الكريم :
«إنّ الله لايُغيّرُ ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنْفسِهِمْ . . .» لذلك تقوم التربية الإسلامية ببناء الإنسان،بناء متكاملا، منطلقه في ذلك من عدة منطلقات منها :[١٣]

١ ـ **الضبط الاجتماعي** : وفكرة الضبط الاجتماعي قائمة على أساس نوعي الضبط الاجتماعي المعروفين لدى علماء الاجتماع.

الأول : ضبط داخلي : قوامه القيم والأخلاق التي تشكل ضمير المسلم وايمانه وعقله الذي يهديه إلى معرفة الحلال والحرام، والثاني: ضبط خارجي يتمثل في تشريعات الإسلام وعقوباته القانونية فيما يختص بكل أمور الحياة.

فالإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه طبيعة اجتماعية عقلانية، وذو إمكانات فطرية عقلية وجسمية ونفسية واجتماعية وروحية؛ لذلك يخاطب الإسلام المسلم في ضوء هذه الطبيعة المتكاملة.

٢ ـ **تكامل الثقافة** : كما يؤكد الإسلام على العلم بقدر تأكيده على الفكر، ويؤكد على الحرب بقدر حبه للسلام، ويؤكد على الحياة، بقدر الاهتمام بالآخرة، ويؤكد على الاهتمام بالجسم والمحافظة على الصحة، بقدر الاهتمام بالعقل والوجدان.

٣ ـ **تكافؤ الفرص** : كما تنطلق التربية الإسلامية من مفهوم تكافؤ الفرص القائم على أساس الإمكانات البشرية، والمواهب الإنسانية، وينظر لتنمية الإمكانات البشرية والموهبة الإنسانية على : أنها سبيل للثروة، إذا استخدمها الإنسان في التجارة وفقا لمعاييره العادلة ، وسبيلا للترقي الاجتماعي، إذ نماها بالعلم والمعرفة، وبالتالي سبيلا لبناء المجتمع وتقدمه.

٤ ـ **تكامل الطبيعة البشرية** : ينظر الإسلام إلى الطبيعة البشرية على أنها ذكية مفكرة، وأن التفكير ذو أسلوب قائم على التساؤل والنظر، والملاحظة الممعنة المدققة للكون الطبيعي، والنفس البشرية، وهو بذلك لم يتضمن حكما من الأحكام يشل فيها حركة التفكير، أو يلغي العقل الإنساني. وما حث الإسلام بالناس على التفكير وطلب العلم والمعرفة والتأمل في الطبيعة والنفس إلا تنمية للذكاء الإنساني، وتسليم

بالإمكانات العقلية في الإنسان، فالإسلام لايرى أن الطبيعة البشرية خيِّرة بالفطرة، أو شريرة بالفطرة، وإنما فيها إمكانات عقلية، ومعايير فطرية، تنمو فتدرك الخير والشر، ولها حرية التصرف في الخير أو الشر، وإن فعلت خيرا فلها ثوابه، وإن فعلت شرّاً فحق عقابه . . «ونَفْسٍ وما سَوّاها فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْواها، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زكّاها وقد خابَ من دَسَّاها» . . . «ومن يعملْ مِثْقالَ ذَرّةٍ خَيْراً يره ومن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّة شراً يَرَهْ» بل إن الأسلوب التدريجي في فرض الفرائض، ما هو إلا مراعاة لهذه الطبيعة البشرية ونموها التدريجي . . «لايكلّفُ الله نفساً إلا وُسْعَهَا».

كما يسلم الإسلام الطبيعة الحيوية في الإنسان، فيقر إشباعها وكيفية ضبط النفس وشهواتها بالطرق والأساليب المشروعة.

٥ ـ **التوحيد** : وانطلق الإسلام من مسلمات توحيد ليحرر العقل من عبوديته لغير خالقه، وليحرره من الأوثان التي حجبت عنه رؤية الحقيقة ، وليحرره من الكبت والخوف والإرهاب الفكري والاجتماعي حينما يؤمن بخالقه، وبقدرته وبهيمنته على الكون الطبيعي، وبذلك تتكون أولى أسس ومباديء الضبط الذاتي الداخلي في الإنسان. وجهاد النفس وهو الجهاد الأكبر. وبجهاد النفس يصل الإنسان الى ضبط ذاتي للفعل البشري، وفقا لمعايير عقلية ونفسية واجتماعية وجسمية في الطبيعة البشرية، حافظ عليها الإسلام، وسن تشريعاته وفرائضه بانيا إياها ومراعيا لها.

وبذلك يكون مفهوم التربية الإسلامية : مفهوما شاملامتكاملاً، تتضاءل إلى جواره أكثر المفاهيم التربوية شمولا واتساعا في الربع الأخير من القرن العشرين.

جـ ـ أهداف التربية الإسلامية

في ضوء النظرة الإسلامية للطبيعة الإنسانية تحدد التربية الإسلامية أهدافا شمولية واسعة وعميقة، تشمل تنمية الجوانب الفكرية والاجتماعية والأخلاقية والجسمية والنفسية. وهي في تنميتها لهذه الجوانب كلها فإنها تستهدف في نفس الوقت تكاملها في حركة نموها وتناسقها، بحيث يصبح الإنسان الذي تعده مكتملاة في شخصيته، نظرة شمولية للأمور في الحياة ومابعدها . . . في الطبيعة وما بعد الطبيعة ويمكن تحديد أهداف التربية الإسلامية على النحو التالي:[١٣]

١ ـ الأهداف الفكرية والمعرفية :

* تستهدف التربية في الإسلام تنمية ذكاء الإنسان، وتنمية قدرته على التأمل والنظر والتفكير، ووسيلتها في ذلك : دعوة الإنسان إلى النظر في الطبيعة، وفي الكون، والنظر في النفس البشرية نفسها، وتأملها واستبطانها.
* كما تستهدف تنمية قدرة الفرد على التصور والتخيل، بما أبدعه القرآن الكريم من مشاهد وصور فنية عن الغيب والقيامة.
* تقوية الذاكرة والتذكر بحفظ القرآن الكريم نفسه، واستيعاب معانيه وتدبره.
* كما تستهدف تنمية القدرة على التحليل، وإدراك العلاقات؛ بفهم عظات التاريخ وربطها بالواقع الاجتماعي للمجتمع والإنسان، وربط العلل بالمعلومات، والأسباب بالنتائج.
* تنمية القدرة على التعبير عما تحتويه الخبرات الحياتية، وما يكونه عقله لها من معان ومفاهيم وذلك باتقانه، وألفته بالتعبيرات والمعاني القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، وتراث السلف الصالح.
* بناء المفاهيم الإسلامية في الإنسان عن الحياة والكون والإنسان نفسه، في صلاته بها، وصلاته بخالقه، وصلاته بجميع المخلوقات. لذلك جعل الإسلام التفكير فريضة، والتعليم فريضة، واحترم ذكاء الإنسان، فخاطبه في كل أمور الحياة والكون، كما اعتبر الإسلام العقل أداة التفكير والفهم معياراً للحكم على كثير من القضايا، في إطار الحرية والتحرر من الخوف، وفي إطار القيم الإسلامية التي هي الضمان الوحيد لضبط منطقه وحركته، وما يصدر عنه من تعبير لفظي.

٢ ـ التربية الأخلاقية :

تستهدف التربية الإسلامية بناء إنسان على خلق عظيم، وبناء مجتمع تسوده مجموعة من القيم والمثل العليا من خلال :

* تنشئة إنسان يسلك في إطار مجموعة من القيم والمثل العليا التي يشملها هذا

الـدين، بحيث يكـون سلوكه متسما بالعدل والمساواة الاجتماعية والفردية، أي المساواة داخل المجموعة، والمساواة داخل نفسه، ومتسما بالحرية الاجتماعية، بما تشمله من حرية سياسية وإقتصـادية وفكـرية وعلمية، وبهذا السلوك الإنساني يتشكل المجتمع الذي ينشده الإسلام.

* غرس القيم الخلقية التي صاغتها السماء بما يتفق مع خصائص الطبيعة البشرية الفردية والاجتماعية، ومن ثم فهي : قيم إنسانية اجتماعية، وليست بعيدة عن الواقع والممارسة.
* إعـطاء الحرية للفرد والمجتمع، في إطار شرط الحفاظ على هذا الإطار القيمي المتفق عليه، ولعل إنسانية واجتماعية القيم الإسلامية وواقعيتها ـ كانت السبب وراء إمكانية تجسيدها في الشخصية الإسلامية.
* تعويد المرء النظام في الحياة، وضبط النفس، وعلى الحياة الاجتماعية التعاونية، والتضحية في سبيل المجموع، وكل هذا يتطلب المران والممارسة اليومية، وهذا ما يفعله القرآن الكريم حين يضع الفرائض التي يطلب من المسلم أن يقوم بها[١٤].

فالمتأمل في العبادات الإسلامية يجد : أنها أفعال يمارسها الإنسان، وتلازمه طوال حياته، ليل نهار، ويتفاعل من خلالها مع البيئة التي يعيش فيها . . . فالصلاة : موقف يعيش المسلم خمس مرات في اليوم بكل كيانه وفكره ووجدانه وبدنه، يتدبر آيات الله، وهو يتلوها، ويشعر بحرارة الإيمان، وهو يرتلها، فتحوله إلى طاقة غير الحياة والأحياء . . والصوم : إمساك عن الطعام والشراب، وإحساس بالجوع والألم والحـرمـان. يتعلم منـه المسلم التعـاطف والإيثار، وقوة الإرادة، والصبر والتحمل ، وكذا الأمر في الزكاة فهي : موقف يعيش فيه الإنسان روح التعاون والتكافل بين أبناء مجتمعه، فيطهر نفسه من أمراض الشح والبخل، ويطهر غيره من الحسـد والحقـد والأضغـان . . . والحج : موقف يعيشه الإنسان؛ فيتعلم التعاطف والتآخي والتقرب إلى الله. وهكذا يعيش المسلم هذه العبادات ليس لها مجرد خضـوع وتنفيذ أوامـر فحسب، لكن لأن القلب الإنسـاني دائم الشعـور بالحاجة إلى الله، وهو شعور أصيل صادق، لا يملأ فراغه إلا حسن الصلة برب الوجود، وهذا ماتقوم به العبادات إذا أديت على النحو السليم[١٥].

* واذا كانت الخبرة هي : التفاعل المستمر بين الفرد وبين الظروف الخارجية في البيئة

التي يستطع أن يستجيب لها ـ فإن منهج العبادات يعنى بطرفى هذا التفاعل، وهما: الفرد والبيئة، فبممارسة الصلاة يتحرر الإنسان من العبودية، فلا يركع إلا لله، ولا يسجد إلا لله، ولا يفكر في حقد أو ضغينة أو سوء نية: «إنَّ الصلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ» كما تعمل الصلاة على تنقية المجتمع وطهارته، لأنها تعمل على وحدته وترابطه، وتشعر الجميع بكرامتهم وحقوقهم، لذلك كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة.[١٦]

٣ ـ الأهداف الجسمية والجهادية:

كما اهتم الإسلام بالجانب الروحي والعقلي في الإنسان، فإنه عنى بالبدن وصحته وقوته.. المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير.. لذلك أشار الإسلام إلى:

* العناية بالجسم وبصحة الإنسان ونظافته، والعناية بملبسه ومأكله.. «وما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، فإن كان لا محالة فاعل فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه..».

* «إعطاء الجسم القسط المناسب من الراحة بعد العناء والتعب..» إن لبدنك عليك حقا..»
* الاهتمام بالرياضة لبناء قوة الإنسان.. علموا أولادكم السباحة، والرماية، وركوب الخيل..
* إعداد المسلمين ليكونوا قادرين على الدفاع عن وطنهم وأمتهم وأعراضهم، وليكونوا قادرين على الجهاد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية.. «وأعدّوا لهمْ ما استَطَعْتُمْ منْ قُوّةٍ، ومِنْ رباطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ به عَدُوَّ اللهِ وَعَدوَّكَمْ.»
* وضع برامج للتدريب الرياضى والعسكري، لتتحقق قوة المسلمين البدنية والعسكرية، استعدادا لملاقاة أعداء الإسلام الذين يتربصون بهم الدوائر.

٤ ـ الأهداف الاجتماعية :ـ

عنى الإسلام بالتشريعات الاجتماعية التي تحدد العلاقات السوية بين البشر، والتي لا يصل إلى مستواه تشريع آخر، أو اجتهاد بشري، فقد شرع لنظام الحكم، والسياسة والاقتصاد، وللأسرة والنظام الاجتماعي العام، وأي تربية إسلامية عليها أن تستهدي في تنمية البشر في ظل هذه التشريعات المختلفة للنظم الاجتماعية . . ومن هذه التشريعات :ـ

* الشـورى . . «وأمْـرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ» ومن ثم فإن الإنسان يعد لكي يكتسب مفاهيم واتجاهات ومهارات أسس الشورى، ومضمونها ومعانيها، وتطبيقاتها في المجتمعات المختلفة.
* السياسة . . في إطار العدالة والفضيلة والأخلاق والمساواة والحرية ،يجب أن يتم إعداد الإنسان في إطار هذه القيم والمفاهيم، ليتسم بجوهرها، ويعايش أشكالها التطبيقية.
* الاقتصادية . . في إطار الدوافع الإنسانية الأخلاقية من أجل العمل والإنتاج . . «وقُل اعْملوا فَسَيرى الله عَمَلَكُمْ ورسولُه والمؤمنون . .» كما أشار الرسول (ﷺ) إلى إتقان العمل «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».
* قيمـة العمل . . ومن ثم فإن التربية الإسلامية عليها أيضا أن تستهدف تلك القيمة في بناء الشخصية الإنسانية، وأن يكون الإنتاج في ظل علاقات إنسانية ، بحيث يصبح عائده محققا لخير المجموع، فلا يكون وسيلة للاستغلال، أو المنع عن بقية البشر. ومن أجـل ذلك شرع الزكاة والصدقة، والإنفاق النقدي، في أوجـه الخـير، بما يعود على المجتمع بالرفاهية، وبما يحقق التكافل الاجتماعي، والمعيشة في ظلال الأمن الاقتصادي والاجتماعي.
* وبالنسبة للأسرة بنى الأسلام العلاقات الاجتماعية فيها على أصول تعجز أمامها التشريعـات الوضعية، وشرع للميراث ، وللقوامة في الأسرة ، ونسبة الأطفال وتربيتهم، وشرع للملكية في الأسرة، والمساواة بين الرجل والمرأة.
* لذلك كله كانت تنشئه الأجيال الجديدة وتربيتهم على هذه المفاهيم هي إحدى

الأطر الفكرية الهامة في الفكر التربوي الإسلامي.

٥ ـ الهدف السياسي العقائدي :

لقد تميز التعليم في المجتمع العربي الإسلامي بأنه كان شعبياً، لا يخضع لإشراف الدولة المباشرة، ولكن منذ فترة مبكرة بدأت السلطة السياسية تتدخل في التعليم وتوجهه لخدمة اغراضها، فمعاوية بن أبي سفيان يعين «القصاص» و «الرواة» في المساجد، يحدثون الناس بأخبار المغازي) ويدعون لقضية بني أمية) والفاطميون يستغلون التعليم، ويؤسسون المؤسسات العلمية والتعليمية (الجامع الازهر)؛ لنشر مبادئهم السياسية، والعباسيون ينشئون المدارس (مدرسة نظام الملك في بغداد) لمناهضة المذهب الشيعي، ونشر المذهب السنّى، والدفاع عن الخلافة العباسية.[٨]

د ـ السمات العامة للتربية الإسلامية

ومن تحليلنا لأهداف ومنطلقات التربية الإسلامية تتضح بعض الملامح والسمات العامة، التي تتميز بها تلك التربية، والتي تتفق إلى حد كبير مع الفلسفات التربوية المعاصرة، إن لم تكن أكثر منها تقدما . . . ويمكن إبراز ذلك على النحو التالي :ـ

١ ـ تكافؤ الفرص التعليمية :ـ

فقد تميزت التربية الإسلامية بدرجة كبيرة من الديمقراطية ، وإتاحة الفرصة لجميع أفراد المجتمع للتعليم. وإذا كانت المؤسسات التعليمية في الإسلام قد فتحت أبوابها على مصاريعها لكل راغب في التعليم دون مقابل ودون تمييز، فإن انشغال سواد المسلمين بلقمة العيش وعدم تكافؤ الفرص الاقتصادية في واقع الحياة، قد صرفهم عن التعليم، بحيث لم يصبح في واقعه عاما، وأصبح بعضهم ـ مرصاة الله ـ يرد معاهده بمقدار، وفي حدود لاتصرفه في الوقت نفسه عن البحث عن لقمة العيش.[١٧] كما كان التعليم وسيلة لتحرير المرء المسلم من أوضاعه الاجتماعية،

وظروفه الاقتصادية التي فرضها المسلم على أخيه المسلم في عضور القهر والتسليط ، دون أن يكون القهر الاقتصادي من الإسلام في شيء.

٢ ـ التربية المستمرة المفتوحة :

كما كانت التربية الإسلامية مفتوحة، ولم يكن من الضروري أن يلتحق طالب العلم بمدرسة أو معهد نظامي ، فحلقات الدراسة ومجالس العلم على مختلف مستوياتها، وفي مختلف المجالات، تنتشر في كل مكان، ومتاحة لكل راغب في العلم، دون أن يلتزم بمواد معينة ، أو كتب بعينها، فالحرية التعليمية في نظر الإسلام لا تختلف عن النظرة المعاصرة.[١١]

كما أن فرصة العلم في الإسلام لا تضيع بسبب السن، فالتعليم في الإسلام غير مرتبط بحدود سنية يبدأ عندها أو ينتهي، قابلية الأسنان للتعليم أمر يستمر مدى الحياة، لقد أراد الله تبارك وتعالى لنبيه أن يدوم له التعليم، وأن يستمر لأمته في كل فترة من فترات حياته التي بدأها بالرسالة، وانتهت باختيار الرفيق الأعلى، بحيث تكون هذه الحياة إضافات من المعرفة فوق إضافات.[١١] ولذلك لم يحدد الدين عمرا ينتهي عنده طلب العلم، ولم يحدد مستوى معرفيا معينا يعتبر غاية أو نهاية بالنسبة لطالبيه، فهو يحث المسلمين على طلب العلم من المهد إلى اللحد، كي نجد في البحث عن المعرفة طول الحياة ولكي، نطمع دائما في المزيد مما حصلنا «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . .» وكل هذا يعني استمرارية التربية التي لاترتبط بسن أو برنامج محدد.[١٩]

٣ ـ الارتحال في طلب العلم :

وإذا كان التعليم في الإسلام لايرتبط بسن معينة أو ببرامج محددة، فإنه أيضا لايرتبط بمكان معين . . . فكانت القاعدة في التعليم : أن يرحل المتعلم وينتقل من قطر إلى قطر . . من قرطبة إلى القيراوان ، إلى القاهرة إلى دمشق إلى بغداد ، إلى بخارى . . كل هذا طلب للعلم، وطلب للتلمذة على أساتذة معينين . . «من سافر

في طلب العلم كان مجاهدا في سبيل الله . . » ومن مات وهو مسافر يطلب العلم كان شهيداً، فما من عالم أو أستاذ مهم في كافة فروع العلوم في الحضارة الإسلامية إلا وقد تتلمذ وحضر العلم في أكثر من قطر إسلامي، إلا وقد درس في مساجد أكثر من قطر، وكان وراء ذلك كله إيمان المسلم بأن المعرفة ليس لها حد تنتهي عنده، أو يصير الإنسان عنده غنيا عن المعرفة ، فمهما حصل الإنسان المسلم من العلم فإنّ ما يجهله أكثر مما يعرفه، وعلى الكبير في الإسلام أن يسعى إلى طلب العلم، طالما كانت فيه الحياة، الأمر الذي يضع للمعرفة حدودا، هي : طاقة المتعلم وقدراته «لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلا وُسْعَهَا . . »[١٢]

لذلك تميزت الفترة المبكرة من عصر الحضارة الإسلامية بالحث على السفر والتنقل، واعتبار الاغتراب أحد الوسائل الرئيسية لتحصيل المعرفة، ويتكبدون في سبيل ذلك المشاق والصعاب، وأحيانا كان العلماء يسافرون المسافات الطويلة، حاملين كتبهم على ظهورهم في كثير من الأحيان. ويروى : أن التبريزي العالم اللغوي المعروف الذي عمل فترة من حياته أستاذا في المدرسة النظامية ببغداد ـ حمل على ظهره أيام شبابه معجما كبيرا من تبريز إلى بلاد الشام، لكي يدرسه عند شاعر معره النعمان المشهور «أبي العلاء المعري» ويقال : إن هذا المعجم كان يبدو في مظهره بعد موت التبريزي مبللا بالعرق، من طول ما حمله هذا العالم على ظهره . . »[٢٠]

وتحدث ابن خلدون في مقدمته عن الارتحال في طلب العلم وفوائد ذلك فقال : «إن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، وذلك من حيث : أن السبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلّون به من المذاهب والفضائل، تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، إلا أن حصول الملكات على المباشرة والتلقين أشد استحكاما، وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مختلطة على المتعلم، لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم، وتعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها إنماء تعليم، وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان، وتصحيح معارفه وتميزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند : تعددهم وتنوعهم، وهذا لمن يسر الله عليه طريق العلم والهداية ، فالرحلة لابد

منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد ، والكمال بلقاء المشائخ ، ومباشرة الرجال»[٢١]

٤ ـ التساوي بين الجنسين في طلب المعرفة :ـ

لم يفرق الإسلام بين الجنسين في طلب المعرفة ، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ويكفي أن حلقات العلم كانت تتردد عليها النساء كما يتردد عليها الرجال، وإذا تابعنا تاريخ الجامع الأزهر وجدنا أنه ينظم بعض الدروس للنساء الراغبات في فهم الدين، وذلك في أثناء العهد العثماني . وفي العهد المملوكي صار مسموحا للنساء أن يتلقين العلم بالأزهر الشريف مع الرجال. وكان طلب العلم بالنسبة للنساء لذات العلم، فلم يكن يسعين إلى التخرج والاشتغال بالتدريس، كما كان يفعل الرجال، واستمر الأمر على ذلك حتى صار تقليدا بالنسبة للمترددات على حلقات الدراسة في الأزهر الشريف من النساء، حتى أول العقد الثاني من القرن العشرين.[١٢]

٥ ـ المثاليـــة :

كما تتسم التربية الإسلامية بالمثالية التي اتضحت في الاهتمام الشديد بالجانب الخلقي، والطابع الديني، والإصرار على بناء إنسان على خلق عظيم، وخلق مجتمع تسوده مجموعة كبيرة من القيم والمثل العليا وتنمية الروح الإسلامي في الإنسان وفي المجتمع ، من خلال مجموعة ركائز كثيرة ترتكز عليا. منها : الغيرية» و «الإيثار» كما تشير الآية الكريمة : «وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفسِهُمْ ولو كان بهم خصاصة . .» كما تتضح مثالية التربية الإسلامية في الحماس الشديد في طلب العلم، والدقة المنهجية العلمية المبنية على ملاحظة الظواهر الطبيعية ودراستها . . «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّناها وما لها من فروج . .» ومنها ملاحظة الظواهر النفسية «وفي أنفسكم أفلا تبصرون . .» ومنها إقران الفعل للثواب والعقاب «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرّةٍ خيراً يره ومن يَعْمَلَ مثقال ذرة شراً يره» ومنها اللغة ومنطقها «إنا أنزلناه قرآنا عربياً» والتربويون أكثر من غيرهم معرفة بقيمة اللغة التربوية، وبقيمتها المنطقية في بناء

المفاهيم ، واتساق التفكير، والتعبير عن الخبرة ونتائجها من معرفة واتجاهات ومهارات ومفاهيم وقيم . .[١٣]

ثانيا : النظرية التربوية الإسلامية

يحاول البعض أن يجسد تلك الأفكار التربوية الإسلامية في صورة نظرية ، وإن كنا لانميل إلى الأخذ بهذا الرأي ، حيث لايقع الباحث في التفكير الإسلامي على نظرية تربوية متكاملة عند التربويين المسلمين ، وإنما عليه أن يستقريء شيئا مما يشبه النظرية في متفرقات كتبهم ورسائلهم .

غير أن هذا الإخفاق في بناء نظرية تربوية متكاملة على غرار ما فعل أفلاطون في الجمهورية مثلا ـ لا ينبغي أن يجعلنا نتوقع من رواد الفكر التربوي الإسلامي ما نتـوقعه من أنفسنا ، من الدقة العلمية في الفكر التربوي ، فإننا بذلك نكلفهم من أمـرهم شططا ، ونـرهقهم عسرا ، بل إن من حقهم علينا : أن ننظر إلى أفكارهم التربوية بمنظار العصر الذي عاشوا فيه ، واجتهدوا أن يصلوا إلى أحسن ما يستطيعون عطاء ، وبهـذا فقـد يمكننا اقتناص مجموعة من «المباديء والأفكار التربوية» المهمة المتناثرة في رسائلهم وتآلفهم ، وأن نضعها في نظام متكامل ، يجعل من مجملها ما يقرب من نظرية تربوية متكاملة . ويمكن توضيح هذه المباديء وتلك الأفكار التربوية على النحو التالي :

أ ـ الأسس الفنية لعملية التعليم والتعلم :[٢٢]

١ ـ التعليم صناعة معقدة كسائر الصنائع ، لابد من توافر شروطها فيمن يتصدى للتعليم ، فقـال ابن خلدون : «إن التعليم صنـاعـة تحتـاج إلى معرفة ودربة ولطف ، فانه كالرياضة للمهر الصعب ، الذي يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس ، حتى يرتاض ويقبل التعليم . . » ودلل بن خلدون على ذلك في «المقدمة» مؤكدا أن «مما يدل على أن التعليم صناعة : اختلاف الاصطلاحات فيه ، فلكل إمام

من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به، شأن الصنائع كلها، فدل على أن ذلـك الاصطلاح ليس من العلم، وإلا لكان واحدا عند جميعهم ، وملازمة المجالس العلمية وكثرة الحفظ والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمانحـة ملكة التصرف في العلم وتعليمه. ومن أهم ما يلزم في العلم : فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة، والعمل على تحصيل الملكة التي هي صناعة التعليم».

٢ ـ ومن هذه الرؤية المهنية الواضحة ، فرق المسلمون تفريقا جيدا بين (التربية) و (التعليم) وتبينوا جليا أن الأولى أكبر من الثانية واشمل، وعلى ذلك نصح الغزالي أولياء الامـور : أن يتـذكـروا جيدا : أن تربية الصبيان ليست مقصورة على تعليمهم، فيجب على ولي الأمر أن يراقب الطفل من أول أمره ، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا إمرأة صالحة متدينة، تأكل الحلال، وينبغي أن يحسن مراقبته فتيا، وأن يعلمه الطريق المستقيم في تناول الطعام والمشاركة.

٣ ـ الإدراك أساس التعلم. فقال الشيخ الطوسي : «ولا يكتسب المتعلم شيئا لا يفهمه، لذلك اشترطوا الابتداء مع المتعلم بما يكون أقرب إلى فهمه، وأن يقتصر بالتعليم على قدر فهمه، فلا يلقى مالا يبلغه عقله فينفره، أو يحبط عليه عقله « وتأكيدا للو عي لهذه العلاقة بين الإمكانيات العقلية للمتعلم وما يقدم له من المادة العلمية، ذكر ابن جماعة المعلمين بضرورة تبسيط كلامهم وتفصيله، ليفهم عنهم المتعلمون، وذلك أسوة برسول الله (ﷺ) الذي كان «كلامه مفصلا يفهمه من يسمعه، وأنه إذا تكلم كلمة أعادها ثلاثاً لتفهم ، وإذا فرغ من مسألة سكت قليلًا، حتى يتكلَّم من في نفسه حاجة في الكلام».

٤ ـ النهي عن الجمع بين أكثر من علم واحد على المتعلم الناشيء؛ حذر التخليط في عقله، فقال بن خلدون : «إن من المذاهب الجميلة والطرق الواجبة ألا يخلط على المتعلم علمان معا». وطالب بالتدرج في تعليم العلوم، من حقائقها المبسطة إلى القضايا المعقدة، استكمالا للنضج، والقدرة على الاستيعاب، وذلك أنه «اذا القيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد ـ كلَّ ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة للعلم في نفسه، فتكامل وانحرف عن قبوله، وتمادي في هجرانه، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم». ومن

بمجمل هذه المباديء قرروا : أن السنة الملائمة لبدء التعليم هي سن السادسة من العمر، قال بن سينا في القانون : «وإذا بلغ ست سنوات فيجب أن يقدم إلى المؤدب والمعلم، ويدرج في ذلك، فلا يحمل على ملازمة الكتاب كرة واحدة».

٥ ـ فهم الطفل أساس نجاح تعليمه . . «فيجب أن تكون العناية مصروفة إلى مراعاة أخلاق الصبي، وذلك بأن يحفظ كي لايعرض له غضب شديد، أو خوف، أو غم، أو سهر، وذلك بأن يتأمل كل وقت وما الذي يشتهيه عليه، وفي ذلك منفعتان : أحداهما لنفسه، والثانية لبدنه إذ ينشأ من طفولته حسن الأخلاق تبعا لمزاجه، وحسن الأخلاق يحفظ الصحة للنفس والبدن جميعا.

٦ ـ وانطلاقا من هذه المطالبة بوجوب فهم الطفل اشترطوا للبدء بتفهم بيئته الاجتماعية وبخاصة بيئته العائلية. وكما جاء في «كتاب الإرشاد والتعليم» : «والطفل صورة عائلية، فكل مافيها من خير وشر وكل ما سمعه ورآه ينطبع فيه. ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور في تربية الأبناء، ومن ربي ماله ولم يرب ولده فقد ضيع الولد والثروة ، وتربية الفضائل لايمكن أن تكتسب في المدارس، بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعي الخطاب، ويفهم الكلام. وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعا الذين يعاشرون الطفل معاشرة مستمرة ، والذين يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم.

٧ ـ ثم إذا أضفنا ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر والحنو والمحبة الخالصة، حكمنا بأنها لاتتم إلا بواسطة من أنتجتهم الفطرة الالهية لهذه المأمورية العالية وهم: الوالدان، ولم يفتهم أثر الاطراب بعضهم في بعض ودور العلاقات الشخصية التي يدخل فيها الطفل مع أصحابه، باعتبارها مصدرا من مصادر التأثير في نشأته، ونموه النفسي والأخلاقي، فطالبوا أن «يكون مع الصبي في مكتبه صبيةٌ من الأولاد الجلّة، حسنة آدابهم، مرضية عاداتهم، فإن الصبي عن الصبي القن، وهو عنه آخذ، وبه آنس» وانفراد الصبي الواحد مع المؤدب أجلب الأشياء إلى ضجرهما، فإذا راوح المؤدب بين الصبي والصبي كان ذلك أنفى للسآمة، وأبقى للنشاط، وأحرص للصبي. على أن العناية ببيئة الطفل الداخلية والمدرسية لم تقدهم إلى التزمت في مراقبة الطفل وحرمانه من حقوقه

الطبيعية في اللعب والمرح.

ب ـ المعلم وطريقة التعليم : [٢٢]

١ ـ يجتهد المعلم في تقريب المعرفة إلى إدراك المتعلم، آخذا بنظر الاعتبار عمره، ومقدار نضجه اللغوي والعقلي، ثم التدرج معه في المعلومات من البسيط إلى المعقد، ومن الموصول بخبراته إلى البعيد عنها، قال ابن جماعة : «على المعلم أن يحرص على تعليم التلميذ وتفهيمه ببذل جهده، وتقريب المعنى له، من غير إكثار لايحتمله ذهنه، أو بسط لايضبطه حفظه ، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة ويحتسب إعادة الشيخ له وتكراره، ويبدأ بتصوير المسائل التي يوضحها بالأمثلة وذكر الدلائل، ويقتصر على تصوير المسألة وتمثيلها لمن تأهل لفهم مآخذها ودليلها».

٢ ـ ولبلوغ هذه الغاية لابد من المرور بثلاث خطوات محددة واضحة، هي : أن يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن، هي أصول ذلك الفن، وقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله، واستعداده لقبول مايرد عليه، حتى يأتي إلى آخر الفن. وعند ذلك تحصل له ملكة في ذهن المعلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله. ثم يرجع بهِ إلى الفن ثانية، فيرفعه إلى التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر ماله هناك من الخلاف ووجهة النظر، إلى أن ينتهى إلى آخر الفن فتجود ملكته ، ثم يرجع وقد أشتد، فلا يترك عويصا ومهما ولا مغبقا إلا وضحه ، وفتح مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته، وهذا ـ كما يقول بن خلدون ـ «هو التعليم المفيد».

٣ ـ بعد إقرار خطوات المتعلم على تثبيت مكتسباته الجديدة والسيطرة التعليمية ، فإنهم وضعوا تأكيدهم على أسلوب آخر، ثبت صوابه تطبيقا، وهو أسلوب المناظرة والمحاولة والمناقشة، حتى نصل إلى مرتبة الخبرة.

٤ ـ الاعتراف بحيوية دور المعلم في العملية التعليمية، قال أخوان الصفا : «ليس

في وسع كل إنسان معرفة العلوم في أول مرتباته، ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم، أو مؤدب، أو أستاذ، في تعلمه وتخلقه، وأخلاقه واعتقاده وصنائعه «لذلك اشترط المربون المسلمون في المعلم المؤتمن على تعليم الصغار ـ اكتمال شخصيته علميا وأخلاقيا وسلوكيا.

ب ـ الحيوية والنشاط :[٢٢]

١ ـ هاجم بن مسكوبة «القوم الذين رأوا الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس، وتفـردوا عنهم، إمـا: بملازمة المغارات في الجبال، وإما : ببناء الصوامع في المغاور، وإما : بالسياحة في البلدان» وقال : إن «هؤلاء لايحصل لهم شيء من الفضـائل الإنسانية . .» وذلك : أن من لم يخالط الناس ويساكنهم في المدن لاتـظهـر فيه الصفـة، ولا النجدة، ولا السخاء، ولا العدالة، بل تسير قواه وملكاته التي ركبت فيه باطلة لأنها لا تتوجه لا إلى الخير ولا إلى النشر، فإذا بطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة صاروا بمنزلة الجمادات أو الموتى من الناس».

٢ ـ لقد أفرز هذا التعامل العملي مع الحياة نتيجة تربوية مهمة في أفكار التربويين المسلمين، وهي : ضرورة إعداد الفرد للمشاركة في الحياة الاقتصادية لمجتمعه، ليزيد في سعادة الجماعة التي ينتسب إليها. وعلى هذا طالب ابن سينا بوجوب توجيه الصبي بعد تحصيله للقرآن، وحفظه أصول اللغة ـ إلى صنعة من الصنايع التي تلائم مواهبه.

٣ ـ تنويع التعليم ليجد كل متعلم ما يتلاءم واستعداداه المهني، وطموحه في الحياة الاجتماعية، وجعلوا من واجب المعلم الاستعداد الحقيقي للمتعلم، فيوجهه إليه ذلك أنه «ليس كل صناعة يؤمها الصبي ممكنة له مؤاتية، لكن ما شاكل طبعه وناسبه».

٤ ـ يتحتم على المعلم إذا مارام أن يختار صناعة لتلميذه «أن يزن أولا الصبي ويسبر قريحته ذكاء، فيختار له إحدى الصناعات بحسب ذلك، فإذا اختار له إحدى الصناعات تعرف قدر ميله إليها ورغبته، ونظر هل جرت منه على عرفان أم لا ؟ وهل أدواته وآلاته مساعدة عليها أم خاذلته، ثم يبث العزم فإن ذلك أحزم في التدبير، وأبعد من أن تذهب أيام الصبي فيما لايؤاتيه ضياعا».

ثالثا : المجسد والتربية

أ ـ معاهد التعليم

لكن هذه المباديء والأفكار التربوية تحتاج إلى المعاهد والمؤسسات التربوية التني تحولها إلى واقع حي، وتساعد على التفاعل المثمر بين المعلم والتلاميذ، إلى جانب التربية المفتوحة في حلقات الدراسة ومجالس العلم على مختلف مستوياتها.

يقسم الدكتور أحمد شلبي أمكنة التعليم في التربية الإسلامية إلى حقبتين : الأولى : قبل انتشار المدارس، والثانية بعد انتشارها، والحد الفاصل بينهما هو عام ٤٥٩هـ. وفيه أفتتحت في بغداد أول مدرسة من عديد من المدارس المنظمة، التي أنشأها الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك. فقبل انتشار المدارس تعلم المسلمون في عدة معاهد منها[٢٣] :

١ ـ الكتاتيب :

عرفت الكتاتيب في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام، وكانت لتعليم القراءة والكتابة. ويروي أن عدد القرشيين الذين كانوا يقرأون ويكتبون عندما جاء الإسلام لم يتجاوز سبعة عشر رجلا فقط، ويلوح أنه كان هناك نوعان من الكتاتيب : نوع يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة، . وكان يقوم بالتعليم بعض الذميين أحيانا كثيرة. والنوع الثاني : كان مكانا يتعلم فيه الصبية القرآن الكريم والدين، وأصبح يطلق على المكان الذي يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة أو القرآن والدين اسم «الكُتَّاب». على أن الظاهر من الشواهد التاريخية، أن كتاتيب حفظ القرآن في العهد المبكر للإسلام، فقد كان الأطفال يندسون بين الكبار في مجالسهم وحلقاتهم بالمساجد، وتلقى بعضهم القرآن من آبائهم وذويهم، أو من مدرسين خصوصيين، ولم تكن الكتاكيت في المساجد فقد نص على أنه : «لايجوز تعليم الأطفال في المسجد لأن النبي (ﷺ) امر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين، لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات، بل يتخذون للتعليم حوانيت في الدروب وأطراف

السوق». وقد لجأ بعض المدرسين ـ على الرغم من هذه التحذيرات ـ إلى اتخاذ زوايا من المساجد يعملون بها، أو غرفا ملحقة بالمساجد.

واختلف حجم الكتاب من حجرة واحدة إلى مكان متسع فيروي «ياقوت» في معجم الأدباء : أن كتاب أبي قاسم البلخي كان به ٣٠٠٠ تلميذا، وكان فسيحا جدا يتسع لهذا العدد. ولهذا احتاج البلخي أن يركب حمارا ليتردد بين هؤلاء وأولئك، ويشرف على جميع تلاميذه، وقد ازداد عدد الكتاتيب في القرن الثاني الهجري حتى أصبح بكل قرية كتّاب.

٢ ـ القصور :

كان الخلفاء والأمراء والأغنياء يتخذون لأولادهم معلمين خاصين، يذهبون إلى القصور، ويجلس الأولاد إليهم، يتلقون منهم قدرا من الثقافة والمعرفة، وكان الوالد يشترك في تخطيط وتحديد مايتعلمه ابنه من معلمه الخاص، وقد أطلق على هذا المعلم إسم «مؤدِّب» وكان بعضهم يقيم في القصور، حيث أعد جناح للإقامة، حتى يتم إشرافهم على تربية الولد.

٣ ـ حوانيت الورّاقين :

مع انتشار الورق من منتجات مصر في ربوع الدولة الإسلامية ـ كثرت الكتب وتفنن العرب في تجليدها وتجميعها، وظهرت مكتبات وحوانيت الوراقين، على أن هذه المكتبات والحوانيت لم تقتصر على بيع الكتب والتجارة، بل كانت أمكنة يجتمع فيها الأدباء والمتكلمون . . وتتحول مناقشاتهم إلى ندوات ومناظرات، وغالبا ماكان أصحاب هذه الحوانيت من المهتمين بالأدب والعلم والدين، ومنهم : من تفقهوا، فكانوا يجذبون اليهم محبي العلم والمعرفة ، ويذكر : أن الباحث كان يبيت بهذه الحوانيت للقراءة والأطلاع والبحث.

منازل العلماء :

اتخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام دار الأرقم بن أبي الأرقم مكانا يعلم فيه المسلمين تعاليم ومباديء الدين الجديد، ويقرئهم مانزل من آيات الذكر الحكيم، كما كان المنزل ملتقى الذين يتخيرون الإسلام، فيأتون إليه ناشدين الإسلام، ثم أقيمت المساجد وأصبحت مكان اللقاء والاجتماع. على أن بيوتا كثيرة في التاريخ الإسلامي لعبت دور المدارس ، كمنزل الرئيس ابن سينا، حيث كان يجلس إلى طلبته ومحبي علمه الغزير ليلا، كما كان الإمام الغزالي يستقبل تلاميذه بعد أن استقال من العمل بنظامية «نيسابور».

٥ ـ المدارس :

حفلت المساجد بحلقات الدرس والمناقشة كما قلنا، مما كان يؤذي بعض المصلين، الذين تطرق آذانهم أصوات المناقشات العالية الحامية الوطيس، ومع اتساع رقعة العلم كان لابد من تخصيص أمكنة ملائمة يجد فيها المعلمون مجالات أوسع للنقاش والبحث والمجادلة. بل إن المعلمين أنفسهم الذين يشغلون بالتعليم جل وقتهم حاولوا الارتزاق باحتراف حرفة بسيطة، فلما فشلوا تطلعوا إلى المدارس، عسى أن يكون وجودها ضمانا لهم في جرايات تقوم بحاجاتهم.

وتختلف المدارس عن المساجد، ففي كل مدرسة إيوان، وهو يقابل قاعة المحاضرات اليوم، ويلحق بالمدرسة مساكن للطلبة، ومرافق أخرى، وقاعة للطعام. ويغلب أن المدارس لم تعرف في عهد الصحابة والتابعين. ولم تنشأ إلا في نهاية القرن الرابع الهجري، وأن أهل نيسابور هم أول من بنوا مدرسة في الإسلام وسموها المدرسة «البيهقية» والظاهر أنه كان لكل مدرسة أوقاف، يصرف منها على الأساتذة والطلبة، والدين هو الغالب على مناهج المدارس. بل كانت كل مدرسة تدرس على مذهب من المذاهب الأربعة، وكانت الظروف السياسية تدعو إلى ذلك. فقد قامت على أنقاض البويهيين والفاطميين (وهما من أنصار الشيعة) دولتا السلاجقة والأيوبيين، وهم من أهل السنة. ولذلك أقام السلاجقة والأيوبيون مدارس لتقاوم ما

غرسه أهل الشيعة من عقائد يرفضها أهل السنة. فأقام السلاجقة مدارس بالعراق ، واقتفى اثرهم «الشاهات» و «الأتابك» الذين أقاموا إمارات على أنقاض السلاجقة . ولما آل إلى الأمر «نور الدين زنكي» في سوريا ومصر أنشأ بها المدارس. كما اتجه الأيوبيون في مصر إلى عقول الناس؛ لغرس المذهب السني، فأقاموا عديدا من المدارس.

وأهم المدارس التي ظهرت في التاريخ الإسلامي :

- **المدرسة النظامية ببغداد** : وقد أنشأها الوزير «نظام الملك» وهي من بين مدارس عديدة أنشأها في بغداد وبلخ وأصفهان، والبصرة والموصل، على أن نظامية بغداد كانت على رسم المدارس النظامية ، وقد انشئت عام **٤٥٩**هـ. وقد تم بناؤها في سنتين.
- **المدرسة الناصرية بالقاهرة** : ولم تنشأ مدارس نظامية إلا في عهد الأيوبيين. أما المدرسة الناصرية فقد بدأ بناءها السلطان العادل «زين الدين كتبغا المنصوري» وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة **٧٠٣**هـ. وقد وصفها المقريزي : بأنها من أجمل مباني القاهرة، وبأنها من أعجب ماعملته بنى آدم.
- **المدرسة النورية الكبرى** : وهي في دمشق، وتنسب إلى نور الدين محمود الزنكي الذي بناها سنة **٥٦٣**هـ. على مساحة حوالي **١٥٠٠م٢** وهذه المدرسة مازالت باقية حتى الآن بحي الخياطين بدمشق، وبابها الحالي هو بابها القديم.

١ ـ المكتبات :

روى المؤرخون عن مكتبات في معظم المساجد والجوامع والمدارس، ودار الحكمة ودور العلم، لتكون مرجعا للطلبة والعلماء والنساخ. وإذا أخذ بتقديرات المؤرخين فإننا نعجب للعدد الضخم الذي يسوقه المقريزى عن خزانة الكتب التي ألحقت بالمدرسة الفاضلية، فهو يقدر الكتب بها بمائة ألف كتاب.

ولعل هذه الأقوال وغيرها تدل على تقدير المسلمين للكتب وإعجابهم بها،

واهتمامهم بالمكتبات، وإقبالهم عليها، وعلى تكوينها، بل وتسابق الخلفاء والأمراء على شراء الكتب، فيقال : إن الحكم صاحب الأندلس كان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس مما لم يعهده، ويروى عنه أنه عندما سمع أن أبا فرج الأصفهاني كتب كتابه «الأغاني» أرسل إليه الف دينار ذهبا ليبعث إليه بنسخة، وصلت الإندلس قبل أن يخرجه الأصفهاني في العراق. ومن أهم المكتبات العامة، خزانة الحكمة أو بيت الحكمة، ودار الحكمة بالقاهرة منذ أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة **٣٩٥**هـ.

ب ـ دور المسجد

١ ـ فكرة عامة :

المسجد لغةً اسم لمكان السجود، وعرفاً اسم للمكان المعد للصلوات، وشرعا: هو كل موضع من الأرض؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : «جعلت لي الأرض مسجدا»، وعندما تقام صلاة الجمعة في المسجد يطلق عليه اسم «المسجد الجامع» والجامع نعت للمسجد، وإنما وصف بذلك لأنه علامة الاجتماع.[٢٤]

والمساجد هي بيوت العبادة وفيها يتمتع المسلمون بأفضل الوشائج بينهم وبين ربهم عز وجل، والمساجد هي : المنتدى والمقصد المهم في الصدر الأول بشئون الدولة، فكانت تعقد فيها المؤتمرات للشورى وتصدر فيها البلاغات والقرارات العامة، وإذا دهى أمر دعى الناس إليها بالنداء المشهور «الصلاة جامعة» وكان الناس قبل اتخاذ المساجد لايجدون الوسائل التي تحقق لهم هذا التنظيم الاجتماعي الرائع.[٢٥] فلم يكن المسجد مكانا للعبادة فحسب، بل كان محكمة للتقاضى، ومكانا للدراسة، بل وكان أيضا ميدانا لاجتماع الجيش الباسل، وداراً لاستقبال السفراء، وغير ذلك من الأغراض التي سنوضحها فيما بعد.

وقد سمى المسجد «بيت الله» فلا يحتاج الداخل إلى استئناس، ولا استئذان للدخول، سواء كان ذلك للدراسة، أو للتعبد، ويلوح أن المسلمين قد تأثروا بالعرب قبل الإسلام، وكان لهؤلاء معبدهم المقدس وهو «البيت الحرام» حيث أقام فيه عبدة

الأصنام أصنامهم على اختلافها. وبعد أن أبعد المسلمون عن مكة وخرج النبي عليه الصلاة والسلام مهاجرا الى المدينة أقام في «قباء» مسجدا هو أول مسجدا في الإسلام. ثم بنى الرسول عليه الصلاة والسلام أثر دخوله إلى المدينة مسجده الذي كان يعلم فيه أصحابه أمور دينهم ودنياهم.

وصار المسلمون يبنون في كل مدينة مسجدا، وعلت المآذن في مختلف الأمصار في المدن والقرى، ولعل أول جامع في مصر هو جامع عمر بن العاص، الذي بنى في العام الحادي والثلاثين من الهجرة، بأمر الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح مصر. وظل هذا المسجد ينمو، حتى أصبح مركزا للثقافة، ومحكمة للقضاء. وكان به أكثر من أربعين حلقة دراسية للتعليم، يؤمها الطلبة للدراسة والبحث. أما الجامع الأموي بدمشق فهو من عجائب الدنيا، ويقال : إن الوليد ابن عبد الملك أنفق على بنائه خراج المملكة سبع سنوات، وكانت فيه حلقات للتدريس للطلبة، كما كان للمالكية زاوية للتدريس، يجتمع فيها طلبة المغاربة، كما كانت به مدرسة للشافعية ، واشتمل أيضا على عدة زوايا، خصصت للطلبة، للدرس والنسخ في هدوء.

٢ ـ الدور التربوي :

في إطار تلك الخصائص والسمات التي تفردت بها التربية الإسلامية، وفي ضوء تحليلنا لأهم المباديء والأفكار التي جاء بها الإسلام، يحدثنا الإمام بن تيمية عن المسجد موضحا ماكان عليه في عهد رسول الله (ص) : «وكانت مواضع الأئمة ومجامع الأمة هي المساجد، فإنه صلى الله عليه وسلم أسس مسجده المبارك على التقوى، ففيه : الصلاة، والقراءة والذكر، وتعليم العلم والخطب، وفيه السياسة، وعقد الألوية والرايات، وتأمير الأمراء، وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون كلما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم[٢٦] ويمكننا تفصيل دور المسجد فيما يلي :

*** التعليم والتثقيف :**

ـ كان المسجد في عهد الرسول (ص) أول مدرسة لتعليم الكبار، وكان لصحابته

عليه الصلاة والسلام معلما، وكان الصحابة هم تلاميذها العباقرة والافذاذ. فيها تعلموا كل أنواع العلم والمعرفة التي تفيد الإنسان في حياته وآخرته، وتبني جميع جوانب شخصيته، فيتخرج منها متكامل الشخصية . . ويستشعر الرسول (ص) مسئوليته التعليمية بقوله : «إن ربي أمرني أن أعلمكم ماجهلتم مما علمني» ويدرك الصحابة أنه صلى الله عليه وسلم معلم، حيث يصفه أحدهم بقوله : «مارأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما»[٢٧].

- وكان المسجد أول المؤسسات التي انطلق منها شعاع العلم والتعليم في الإسلام على كافة البشر، لكل من يريد أن يستمع ، وكان جمهور المتعلمين في المسجد : هم الرجال الكبار الذين تلقفوا كل ماكان يصدر عن الرسول (ﷺ) للقرآن حفظا، وللسنة امتدادا. ولقد ارتبط تاريخ التربية في الإسلام ارتباطا وثيقا بالمسجد، ولعل السبب في جعل المسجد مركزا ثقافيا هو الدراسات في سنى الإسلام الأولى، وكانت دراسات دينية تشرح تعاليم الدين الجديد، وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه، فكان مسجد «قباء» أول مسجد في الإسلام، ثم مسجد المدينة عقب قدوم الرسول إليها. وكانت عادة الرسول (ﷺ) أن يجلس في مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم ودنياهم، وكثرت بعد ذلك المساجد في جميع أنحار العالم الإسلامي، ففي أكثرها حلقات العلم تعقد، والدروس تلقى على الكبار من المسلمين.[٢٨].
- وترى «أسماء فهمي» أن المسجد كان بمثابة دار للتعليم الأولى والمدرسة الثانوية في وقت واحد، ففي أول الأمر كان مكانا للتعليم الأولى ، ولكن المسلمين فضلوا فصل تعليم الصغار في أماكن خاصة، عرفت باسم «الكتاتيب» خوفا من المسلمين من عبث الأطفال.[١]
- الصلاة لا تصح إلا بتلاوة القرآن الكريم، ذلك الكتاب الذي يحوي من المعلومات والمعارف ومن النظم والقوانين كل مايهم الإنسان في شتى نواحي الحياة، وهو يتحدث عن خلق السموات والأرض، والظواهر الطبيعية، ويتحدث عن خلق الإنسان في أطواره المختلفة، وعن علم الفلك، وغزو الفضاء، ودورة الماء، والبحر وغيرهما من كل مايهم الفرد والمجتمع، ويحكم تصرفات الإنسان مع نفسه، ومع ربه ومع أسرته، ومع أفراد مجتمعه الذي يعيش فيه.

- ويسبق الصلاة خطبة الجمعة، وخطبة العيد في صلاة العيدين، حيث يتحدث الخطيب في شتى الأمور والمشكلات التي يعيشها الإنسان، ويقدم ما استطاع من الحلول الكفيلة لحلها، كما يفقه الناس في أمور دينهم، وكيفية التعامل مع الخلق والخالق.
- في قراءة القرآن كل صلاة : تدريب للعقل على التأمل والاستنتاج، وأخذ العظة والعبرة وربط الأسباب بالنتائج : «إذ لايذكر القرآن العقل إلا في مقام التنظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به، ولاتأتي الإشارة إليه عارضة ، بل هي تأتي في كل موضع مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة . .»[٢٩].
- وكانت حلقات العلم التي تعقد في المساجد والمكتبات ومنازل العلماء وفي قصور الأثرياء والامراء عندما ظهرت القصور عقب الفتوحات، على أن المساجد ظلت أهم المراكز الثقافية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.[١٠]
- ولقد نشأت الحلقات العلمية في المساجد نشأة دينية، ولكنها مالبثت أن تطورت مع تطور الثقافة الإسلامية، ومع دخول كثير من معارك ذلك العصر ـ اتسع المسجد للعلوم الدينية ولسواها، وإذا بالمساجد تحول إلى أمكنة يدرس فيها الطب والرياضيات والطبيعيات وعلوم الأدب وغيرها، وكما يقول السيوطي : «إن دروسا مختلفة رتبت في الجامع الطولوني في مصر، قد شملت التفسير والحديث والفقه والقراءات والطب والميقات . .»[٣٠]
- وفي مثل هذا النظام التعليمي المفتوح لم تكن المؤسسة التعليمية وهي المسجد ـ هي التي تجذب الطلاب إليها، ولكن شهرت الأستاذ كانت موضع الجذب، ومن عوامل شهرته «غزير مشيخته، ووافر علمه، وحسن سلوكه». وتتأصل هذه الشهرة بكثرة عدد الطلاب الذين يتحلقون من حوله[٩].
- وحلقات العلم في المساجد وفي غيرها كانت تغص بآلاف من الطلبة الذين طلبوا العلم لذاته، ودأبوا في التزود الثقافي الحر بقدر ما تسمح به أوقاتهم وأعمالهم، وهذه الجمهرة المتنوعة من زبائن العلم قد جعلت من التربية العليا عملا شعبيا في متناول العامة والخاصة. وكانت التربية بذلك عملا يقوم به المتعلم وينمو فيه، أكثر مما كانت عملا يقوم به المعلم ويرتزق منه، فالتعلم الذاتي المستمر كان صفة التربية التي مارسها العرب في الإسلام، في عصورهم المزدهرة «فطلاب العلم بكل إرادتهم

الحرة هم الذين يوجهون أنفسهم نحو المعرفة التي يرغبون فيها، ويختارون المسلك الذي يرضيهم للسير فيه، ولم تفرض عليهم قيود نظام تعليمي روتيني، ولم يحسوا بوضاية أستاذ يمتلك في يده السلطة والمبادأة والأمر والنهي، بل عاشوا كالنحل الدائب، يسقطون على الزهر أينما طاب رحيقه»[٩]

* التربية الخلقية والروحية :

- الصلاة تنمي في الإنسان الضمير الحي الذي يلزم المسلم اتباع القانون الإلهي، ويكون رقيبا دائما على سلوكه وتصرفاته مع الآخرين، فالضمير الضعيف لايقوى على محاسبة صاحبه عن أخطائه وأفعاله التي تتعارض مع قيم الناس، وبذلك تندفع رغباته ودوافعه للتعبير عن نفسها - دون رقابة أو ضبط، تعبيرا أنانيا بدائيا.[٣١]
- كما أن الصلاة ومافيها من إقرار بالربوبية، وما تشتمل عليه من خضوع وقيام وركوع وسجود، هي ترويض للنفس وإذلال لكبريائها، وجعلها طيعة بقبول الأوامر الإلهية والعمل بها، ولذلك يقول المولى عز وجل : «وأن أقيموا الصَّلاةَ واتَّقُوه وهو الذي إليه تُحْشَرُون»[٣٢]. فالصلاة تمهيد للنفس، وإعداد لها إعداداً خاصا؛ لتصبح قادرة على التخلي عن أنانيتها وجشعها، فالإنسان في طبيعته يبخل ويبطر عندما يصيبه الغنى، كما يصيبه الجزع ويسيطر عليه الهلع والخوف من الفقر، لكن الإنسان المؤمن القائم بالصلاة المستوعب لمعانيها وروحها تقوى نفسه في كافة الأحوال؛ لأنه اعتمد على ركن مكين هو خالق البشر ورازقهم.
- والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر : «إن الصَّلاَةَ تَنْهَى عن الفَحْشَاءِ والْمُنْكر»[٣٣] فهي تهذب ضمير المؤمن، وتطهر قلبه، ليكون متكافلا مع المجتمع الإسلامي، فيهجر الجرائم الاجتماعية، ويبتعد عن كل منكر تنكره العقول السليمة، «فَوَيْلٌ لِلْمصَلِّينَ الذينَ هُمْ عن صَلاَتِهِمْ ساهون».[٣٤]
- وإذا كانت التربية تعديل في السلوك، فإن الصلاة تجعل المسلم يراجع نفسه باستمرار ويكتشف أخطاءه، ويغسل روحه، من جراء تعامله اليومي، مع ما فيها من دوافع وشهوات وأهواء، فهي تسمو بالإنسان، وتقوم انحرافه؛ ليعود بعد ذلك

ليستـأنف حياته، ويؤدي رسالته في هذه الأرض، وتؤثر صلاة الجماعة في مجتمع المصلين ، وذلك التأثير الذي يؤدي إلى التغير الأفضل بروح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر داخـل المسجد وخارجه، وكما يقول الرسول (ﷺ) «لتأمرنّ بالمعرون ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم يد بعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»، فالصلاة المرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن النكر هي الصفة الأساسية للمؤمن. وإمام المسجد هو قائد التغيير الاجتماعي، والقدوة والحسنة، لما فيه من تأثير في سلوك الناس.

- كما أن خشوع المؤمن في صلاته، وتركيز ذهنه، وحضور قلبه، واستبعاد كل الأفكار التي تلاحق المؤمن في صلاته ـ يعلم الإنسان أن لايؤدي إلا عملا واحدا في كل مرة، فيقل اضطرابه ويزيد إنتاجه، لأن الإنسان المشتت الفكر مشغول القلب، يعيش دائما في اضطراب، فتقل قدراته على الإنتاج : «وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه».

*** التربية الاجتماعية والسياسية :**

- المسلمون في المساجد يحسون بأخوة الإسلام ، ومجتمع المصلين داخله مجتمع يسوده الحب والصفاء والوئام، فهو مجتمع يتفقد الغائب، ويجامل الحاضر، ويعين بعضه بعضا، فلقاء المسلمين خمس مرات في اليوم داخل المساجد، ينمي روح الجماعية والتآلف العاطفي، كما يقوى الصلة الفكرية والنفسية والشعورية والاجتماعية بين جماهـير المصلين، كما ينمي فيهم الإحسـاس الجـماعي المملوء بالأمـل والفرح، ويعودهم الالتقاء على الخير، والتعاون على البر والتقوى، والبعد عن الإثم والعدوان.
- وفي مسجـد النبـوة تمَّ وضـع مخطط شامـل لمواجهـة الأحداث الكبرى في حياة المسلمين، وقد انطلقت منه جيوش المسلمين، وصدرت منه الفتاوي التي نظمت الحياة الاجتماعية، وقضت على مشكلاتها، وفيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس بالعدل، فكان المسجد مجلس قضائه للفصل بين الخصوم، وفي المسجد استقبل رسول الله الوفود، وتمت المفاوضات، وعقدت مواثيق الصلح،

وهكذا فإن المسلمين في عصورهم الأولى توسعوا في فهم مهمة المسجد ، فاتخذوه مكانا للعبادة أو معهداً للتعليم ، ودارا للقضاء، وساحة تتجمع فيها الجيوش ، ومنزلا لاستقبال السفراء.[٣٥]

- وفي المسجد يتعلم المسلمون أصول وقواعد الممارسة الديمقراطية. من واجب المصلي ألا يتبع الإمام إذا أخطأ في الصلاة ، بل يجب عليه أن ينبهه إلى ما وقع فيه من خطأ، كذلك يكون موقفه مع الخطيب على المنبر، فإذا أخطأ وجب على المصلين أن يعترضوه ويرشدوه إلى الصواب ، فالصلاة تدريب عملي على الممارسة السليمة للديمقراطية.
- كما كان المسجد الإسلامي يؤدي دور المجالس النيابية في الوقت الحاضر، فإذا حدث أمر هام أعلنوا أن الصلاة جامعة ، فيجتمع المسلمون بالمسجد لأداء الصلاة، ثم يستشير الخليفة ذوي الرأي والتجربة منهم فيما جد من أحداث ، ثم يعلن رأيه للجميع فيلتزم به الجميع، وبهذا كان المسجد يؤدى دور المجالس النيابية في الوقت الحاضر.[٣٦]

*** التربية الجسمية والجمالية :-**

- الصلاة بحركاتها وما يتبعها من غسل ووضوء، وطهارة للثوب والمكان - تحفظ للإنسان صحته وتعمل على سلامة بنيته «فقد سبق هذا المنهج النظم الصحية في العناية بالنفس الإنسانية، ووجوب المحافظة عليها، لوقايتها من الأمراض، وهذا ما يسمى حديثا بالطب الوقائي ، ومعالجتها مما يصيبها من أمراض، وهذا ما يسمى بالطب العلاجي.[٣٧]
- والصلاة ذات طابع جمالي سواء في حركاتها أو سكناتها، أو في الاستعداد لها : «يابَنِيْ آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِنْدَ كلِّ مَسْجِدٍ» . . بمعنى أن المسلم يجب أن يتهيأ لأداء هذه العبادة وأن يتزين عند كل صلاة . . إلى جانب ما يتأمله ويتذوقه من فنون ونقوش حليت بها المساجد، فكأن المسلم أثناء جلوسه في محراب للتعلم والتدين والتذوق ، وأي مكان آخر غير المسجد بين كل هذه الصفات ، لتكون خصالا حميدة من صفات المسلم . . !!

وهكذا يتضح من هذا العرض : أن الباعث على بناء المسجد في صدر الإسلام لم يكن مقصورا على الأغراض الدينية وحدها، بل كان ذلك راجعا إلى أسباب سياسية واجتماعية وعلمية . . فكان المسجد هو أول المؤسسات التي انطلق منها إشعاع العلم والتعلم في الاسلام على كافة البشر . . وفي المسجد كان يتم تدبير الكثير من شئون المسلمين . . وهكذا كان المسجد ومازال المؤسسة التربوية التي تقوم بإعداد المسلم الإعداد المتكامل، الذي يساعد على التكيف مع الحياة من خلال تكيفه مع نفسه ومع مجتمعه، وفق استعداداته وقدراته، ودون تقيد بسن معين أو التقيد بمستوى معرفي معين . . وبذلك يحقق المسجد الأبعاد الثلاثة التي تهدف التربية إلى تحقيقها : البعد النفسي، وهو : التعلم وفق القدرات والاستعدادات (لايُكَلِّفُ الله نَفْساً إلاّ وُسْعَهَا) والبعد الاجتماعي، وهو : إعداد الفرد للمشاركة وبذل الجهد في الحياة العامة وفي التنمية الاقتصادية، والبعد التكاملي، أي التكامل في الإعداد، حيث أن الاسلام ينظر إلى الفرد على أنه وحدة متكاملة.

لذلك جمعت التربية الإسلامية بين جميع هذه الجوانب (الجسمية ـ العقلية والروحية) وقام المسجد بتنمية جميع هذه الجوانب، وتخرج من تلك المدرسة الإسلامية الكثير الكثير . . فتاريخ المسجد في الإسلام حافل بأعظم مافي التراث الحضاري الإسلامي من خصائص وقيم، مازالت تبهر العالم حتى اليوم.

هذا وأسأل الله لى ولكم التوفقيق ، ، ،

المراجـــع والمصـــادر

١ ـ أسمـــاء فهمـــي ، مبـاديء الـتربية الإسـلامية، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ ص ٣٢ ، ٣٣ .

٢ ـ نبيل عامـر صبيـح ، الـتربية الإسـلامية ودور المسجـد فيهـا، حولية كلية الـتربية، جامعـة قطر ، العـدد الأول ١٤٠٢هـ، (١٩٨٢م) السنة الأولى ص ٣٥ ، ٤٢ .

٣ ـ سيد ابراهيم الجيار ، دراسـات في تاريخ الفكـر الـتربـوي، القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٧٧، ص ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧ .

٤ ـ آدم متـــــز ، الحضـارة الإسـلامية في القـرن الـرابع الهجري أو عضر النهضة في الاسلام، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريده، ط ٣، القاهرة ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٥٧، ص ٣١٤ .

5 - Nakosteen , M. , Histiey of Islamic Origins of Western Ed., University of Colorade Press, 1964, P. 37.

6 - E. H. Wilds, The Fcundations of Modern Ed., 1959, P. 216.

٧ ـ دى بـــور ت . ح . ، تاريخ الفلسفـة في الإسلام، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٤، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريده ، ص ٥ .

٨ ـ محمـد نبيـل نوفل ، تطور أهداف التربية في العالم العربي في العصور الحديثة القـاهـرة، مكتب اليونسكو الاقليمي ، ١٩٧٨، ص ١٠، ٦٢ .

٩ ـ محمـود قمبـــر ، نظم التعليم المفتـوح، بغداد، الجمعية العراقية للعلوم التربوية والنفسية ، ص ٤، ٥، ١٥، ١٦ .

١٠ ـ أحمـد شلبـــي ، تاريخ الـتربية الإسـلامية، القاهرة، الأنجلو المصرية ١٩٦٠ ص ١٧٣، ٤٥، ١٧ .

١١ ـ أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام، القاهرة ، مطبعة الحلبي، ١٩٥٥، ص ٩٢، ١٧ .
١٢ ـ أحمد حسن عبيد ، الإسلام وتعليم الكبار، سرس الليان، المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار، ١٩٧٦، ص ٢٠، ٤، ٥، ٣ .
١٣ ـ محمود السيد سلطان ، مسيرة الفكر التربوي عبر التاريخ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩، ص ٦٢، ١٠٣، ٧٠ .
١٤ ـ محمد فاضل الجمالي ، تربية الإنسان الجديد، تونس، الشركة التونسية للتوزيع ٧١٩٦٧ ص ١٣٤ .
١٥ ـ يوسف القرضاوي ، العبادات في الإسلام، القاهرة، دار المعارف ١٩٧٤، ص ٩٧ .
١٦ ـ محمود شلتوت ، منهج القرآن في بناء المجتمع، القاهرة، وزارة الأوقاف الرسالة الخامسة، ص ٣٢ .
١٧ ـ محمد أحمد الغنام ، مقالات في تاريخ التربية، القاهرة ، (د.ت) ص ٦٢ .
١٨ ـ حسين سليمان قوره ، التربية مدى الحياة أساس واضح في منهج التربية الإسلامية، صحيفة التربية، العدد الرابع أكتوبر ١٩٧٥ ، القاهرة، رابطة خريجي معاهد التربية ، ص ٤٢ .
١٩ ـ أحمد حسن عبيد ، تربية إنسان جديد، القاهرة ، مكتب اليونسكو الاقليمي ١٩٧٨، ص ٤٢ .
٢٠ ـ محمد منير مرسي ، المخطوطات العربية، القاهرة دار النهضة العربية ١٩٦٩، ص ٢٣ .
٢١ ـ عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، القاهرة، دار الفكر ، (ن.ت) ، ص ٥٤١ .
٢٢ ـ محمد جواد رضا ، الفكر التربوي والإسلامي، الكويت، دار الفكر العربي، ١٩٨٠، ص ٩٦، ٩٩، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥ .

٢٣ ـ سعد مرسي وسعيد اسماعيل ، تاريخ التربية والتعليم، القاهرة ، اعالم الكتب، ١٩٧٤، ص ١١٢ .
٢٤ ـ عبدالله المشد ، وظيفة المسجد في المجتمع المعاصر، مجمع البحوث، الاسلامية، الجزء الثالث ، ٧١٩٧٢ ، ١٧٤ ،
٢٥ ـ ناصر بن حمد الراشد ، نبذة عن رسالة المسجد، سرس اللبان، المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي، ١٩٧٨، ص ٦، ٧ .
٢٦ ـ ابن تيمية ، مجموع الفتاوي، على عبد الحليم محمود، المسجد وأثره في المجتمع الاسلامي، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٦، ص ٨٣٣
٢٧ ـ عبد الفتاح جلال ، من الأصول التربوية في الإسلام، سرس الليان ، المركز الدولي للتعليم الوظيفي في العالم العربي ، ١٩٧٧، ص ٨ .
٢٨ ـ الغزالي ، إحياء علوم الدين، جـ١ القاهرة، احياء التراث، ١٣٠٦هـ ص ٥٢ .
٢٩ ـ عباس محمود العقاد ، التفكير فريضة إسلامية، بيروت ، دار القلم ط١ ، ص ٥ .
٣٠ ـ السيوطي ، حسن المحاضرة، القاهرة ، ١٣٢١هـ ، جـ٢، ص ١٣٨ .
٣١ ـ سيد المغربي ، انحراف الصغار، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٦٠، ص ١٩٥ .
٣٢ ـ القرآن الكريم ، سورة الأنعام (٧)
٣٣ ـ القرآن الكريم ، سورة العنكبوت (٤٥)
٣٤ ـ القرآن الكريم ، سورة الماعون .

35 - The Ensyclopaedia of Islam , Art, : Masjed.

٣٦ ـ الأزهر تاريخه وتطوره، مقدمة الكتاب بقلم محمد البهي، القاهرة، دار مطابع الشعب، ١٩٦٤، ص. ب.
٣٧ ـ أحمد الحصري، من الفقه الاسلامي (المدخل ـ العبادات)، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهـرية، ١٣٨٧هـ، (١٩٦٨م) ط١، ص ١٤٧ ـ ١٤٩.